الفصل السادس

مشاهير القضـــاة

الإمام أبو يوسف

قد شهدت بغداد عاصمة العباسيين مجموعة من هؤلاء الأفذاذ فى قمتهم الإمام أبو يوسف الذى كان قاضى بغداد فى عهد المهدى والهادى، ثم أصبح قاضي القضاة فى عهد الرشيد، وهو أول من لقب بهذا اللقب وأول من ابتكر زيا خاصاً للقضاة، ذلك الزى الذى اقتبسه العالم كله من فكر أبى يوسف.

ومما يذكر عنه أنه رد شهادة بعض خاصة الرشيد فسأله الرشيد فى ذلك فقال: سمعته يقول أنا عبد الخليفة، فإن كان صادقاً فلا شهادة لعبد، وإن كان كاذبا فشهادته مردودة لكذبه ولأنه أحل نفسه محل العبيد، وانساق الخليفة فى الجدل معه، فسأله: وهل تقبل شهادتى؟ فقال أبو يوسف: فى الحق أنها لا تقبل، ودهش الرشيد وسأل: لماذا؟ فأجابه: لأنك تتكبر على الخلق، ولا تحضر الجماعة مع المسلمين، وهذا يخدش العدالة التى هى شرط لقبول الشهادة، فتأثر الرشيد من ذلك، وبنى فى القصر مسجداً أذن للعامة بالصلاة فيه، واختلط بهم ليزيل الكبر، وصلى معهم ليحضر الجماعة[١].

* * *

يحيى بن أكثم التميمى وأحمد بن أبى داود

ومن القضاة المشاهير يحيى بن أكثم التميمى وأحمد بن أبى داود، وقد شغلا بالتناوب منصب قاضى القضاة خلال عهد المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وكان لهما نفوذ واسع المدى فى بلاط هؤلاء الخلفاء، وقد ظهر يحيى أولا وكان صنو المأمون ثم غضب عليه وأبعده، وولى أحمد بن أبى داود المعتزلى وقد ظل هذا فى عمله أمدا طويلا حتى عهد المتوكل، وفى سنة ٢٢٣ مرض وعجز عن العمل فقام ابنه أبو الوليد مقامه، ولم يكن كأبيه فى حسن السيرة والكفاءة فغضب عليه المتوكل وعزله، وأعاد يحيى بن أكثم إلى الرضا، وأسند له وظيفة قاضى القضاة من جديد وأضاف إليه حق النظر فى المظالم[٢].

---

(١) تاريخ بغداد والأغانى.

(٢) الجزء الثالث من موسوعة التاريخ الإسلامى د. أحمد شلبى ص ١٨٦.

عبد الرحمن بن حجيرة

ولى عبد العزيز بن مروان عبد الرحمن بن حجيرة القضاء بمصر، وكان من أفقه الناس وأعلمهم، روى أن رجلا من أهل مصر سأل ابن عباس عن مسألة، فقال له ابن عباس: من أى الأجناد أنت؟ قال: من مصر. قال ابن عباس: تسألنى وفيكم ابن حجيرة.

وقد جمع له القضاء والقصص وبيت المال، فكان له من ذلك ألف دينار فى العام، ولكنه كان لا يحول عليه الحول وعنده منها شىء، فقد كان يفضل عليه أهله وإخوانه.

ويروى عنه أنه عرضت عليه قضية عذبت فيها امرأة أمةً لها، فقضى ابن حجيرة بعتق الأمة، وجاءه رجل يقول له: إنى نذرت ألا أكلم أخى أبدا فقال له: إن من قطع ما أمر الله به أن يوصل حلت عليه اللعنة.

وابن حجيرة هو القائل: إن القاضى إذا قضى بالهوى احتجب الله عنه واستتر، وهو القائل أيضاً: لأن مقرض دينارين فيردان لك، ثم تقرضهما مرة أخرى فيردان لك، أحب إلى الله من أن تتصدق بهما[1].

وقد دامت مدة قضائه اثنتى عشرة سنة وتوفى سنة ٨٣هـ.

***

توبة بن نمر الحضرمى

ومن قضاة مصر المشاهير توبة بن نمر الحضرمى وكنيته أبو محجن، وقد ولاه القضاء الوليد بن رفاعة سنة ١١٥هـ ، وشخصية توبة تتحدث عنها امرأته عفراء الأشجعية، وكانت امرأة بارزة، قالت له عقب أن ولاه ابن رفاعة القضاء: أما والله يا توبة ما حاباك ابن رفاعة بهذه الولاية، ولو أنه وجد فى قيس كلها من يسد مسدك، أو يضطلع بهذا الأمر لآثره عليك، وقدمه وأخرك وقد أوردنا من قبل أن توبة حذر امرأته من الشفاعة فى قضية أو التدخل فى أمور القضاء، وأنه ذكر لها أنها تطلق لو فعلت شيئاً من ذلك.

---

(١) الكندى : قضاة مصر ص ١٣ وما بعدها (تلخيص).

ويروى أن رجلا وامرأته اختصما عنده، وطلقها الرجل، فقال توبة للرجل: متعها(أى أعطها مالاً متعة لها) فرفض الرجل هذه النصيحة، ولم يستطع القاضى إرغام الرجل على ذلك لأنه لم يكن واجبا عليه، وبعد حين جاء هذا الرجل أمام توبة شاهدا فى قضية، فقال له توبة: لست أقبل شهادتك. قال الرجل: ولم؟ قال توبة: إنك أبيت أن تكون من المحسنين، وأبيت أن تكون من المتقين، ولم يقبل له شهادة.

ويروى أن توبة كان لا يملك شيئاً إلا وهبه ووصل به إخوانه، وأفضل به عليهم، فلما وُلى القضاء جيء له مرة بغلام من حمير لا تملك يده شيئاً إلا وهبه وبذره، فأراد توبة أن يحجر عليه لسفهه، فقال الغلام لتوبة: وأنت من يحجر عليك أيها القاضى؟ فوالله ما نبلغ فى أموالنا عشر معشار تبذيرك. فسكت توبة ولم يحجر عليه[١].

* * *

بكار بن قتيبة

ومن مشاهير القضاة بمصر بكار بن قتيبة، وقد ولاه المتوكل سنة ١٤٦هـ ويقول الكندى إنه كان عفيفاً عن أموال الناس، محمودا فى عمله، وقامت الدولة الطولونية (٢٥٤- ٢٩٢) وبكار يقوم بأمور القضاء، وكان أحمد بن طولون يعظم بكارا ويرفع قدره، ثم اختلف ابن طولون مع الموفق فطلب ابن طولون من بكار أن يلعن الموفق، فلم يقبل بكار، فغضب عليه ابن طولون، فلما تبين ذلك بكار من ابن طولون وظهرت له موجدته عليه كان يقول: ألا لعنة الله على الظالمين، فقيل لأحمد بن طولون إن بكارا قصدك بهذا القول فطالبه برد الجوائز التى كان قد أجازه بها، فقال بكار: هى بحالها. فوجه ابن طولون من يأخذها فوجدها كما هى بأختامها فأخذها. وسجنه ابن طولون فى دار اختارها لذلك، وكان بكار يطل من كوة بالدار فيلقى الدروس على تلاميذه، ويملى عليهم، ويفتى من يحتاج إلى فتوى، ومرض أحمد بن طولون مرض الوفاة فأرسل إلى بكار يستحله، فقال للرسول: قل له أنا شيخ كبير، وأنت عليل مدنف، والملتقى قريب،

(١) الكندى : قضاة مصر ص ٣٦ وما بعدها (تلخيص).

والله هو الحاكم بيننا، وتوفى أحمد بن طولون فعرف بكار ذلك فقال: مات البائس، وقيل لبكار: انصرف. فقال: الدار بأجرة، وقد أنست بها، وما مضى فعلى غيرنا، وما كان فى المستأنف فعلى أجره. وأقام بالدار حتى مات بعد أربعين يوما من موت ابن طولون.

وقد ظلت ولايته ٢٤ سنة ونصف سنة، ومات سنة ٢٧٠هـ[١].

***

عز الدين بن عبد السلام

ومن مشاهير قضاة مصر عز الدين بن عبد السلام (١٢٦١م) الملقب بـ "سلطان العلماء" أو "بائع الملوك"[٢] وسبب هذه التسمية أنه رأى المماليك الذين اشتراهم السلاطين من أموال الدولة قد أصبح فى يدهم الحول والسلطان، وأصبحوا أمراء البلاد، فأعلن بطلان جميع الصفقات التى يباشرونها من بيع وشراء ورهن... لثبات الرق عليهم، وقرر أنه من الضرورى أن يباعوا هم لحساب الدولة، وأن توضع أثمانهم فى بيت المال: وأن يعتقهم من يشتريهم، وبدون ذلك يظلون أرقاء مملوكين للدولة، فثار الأمراء لهذا الرأى وهموا بقتل الشيخ، وأصر الشيخ على رأيه، ولما لم يستطع تنفيذه استقال من وظيفته وقرر مصر، فأعد حمارين حمل عليهما أمتعته وآلة وسار تجاه الشام، وحينئذ هاج الناس، وظهرت بوادر ثورة أخافت السلطان، فلحق السلطان به واسترضاه وأعاده على أن ينفذ رأيه، وتم للشيخ ما أراد فعرض السلطان المملوكى للبيع وقبض ثمنه ووضعه فى بيت المال ثم أعتقه مشتريه، ثم عرض الأمراء واحداً واحداً للبيع وغالى فى ثمنهم، فاشترى السلطان بعضهم وأعتقهم بعد أن دفع أثمانهم، واشترى من تحققت له الحرية بعضاً آخر، وهكذا ، وربحت خزانة الدولة ملايين الجنيهات التى كان يملكها هؤلاء[٣].

ولعز الدين بن عبد السلام مواقف رائعة ترتبط بالصراع ضد الصليبيين

---

(١) الكندى : قضاة مصر ص ١٤٩ وما بعدها (تلخيص). (٢) كتاب "بائع الملوك" للدكتور محمد حسن عبد الله .
(٣) ابن إياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٩٥ وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٢ .

والتتار وضد الانحراف الذى ظهر فى بعض قادة عصره، وتغلب صوت الشيخ على كل الأصوات الظالمة، حتى على صوت السلطان الصالح إسماعيل، فإن الشيخ أفتى بخلعه وأثار الناس عليه وتم له ما أراد[١].

وننحنى تقديراً لذكرى بائع الملوك، متمنين أن يصبح هذا العالم نموذجاً للعلماء الباحثين عن الحق والراغبين فى الخلود.

***

يحيى بن يحيى الليثى

وإذا تركنا مصر وذهبنا إلى المغرب والأندلس وجدنا قضاة يزدهى بهم التاريخ، ويمكن أن نعد فى القمة من هؤلاء الإمام يحيى بن يحيى الليثى الذى اتسع نفوذه اتساعا واسعا فى عهد هشام بن عبد الرحمن الداخل، وأخذ يعين تلاميذه ومريديه فى المناصب القضائية المختلفة وأحياناً فى المناصب السياسية، وبذلك زاد نفوذ الفقهاء والقضاة حتى أصبح هذا العصر يسمى "عصر نفوذ الفقهاء"[٢].

***

القاضى "عياض"

وفى المغرب والأندلس أيضاً هناك قاض بلغ الغاية فى الشهرة، هو القاضى "عياض" سنة ٥٤٤هـ وقد ولد عياض فى سبتة وتلقى علومه على ابن رشد وأساطين عصره الآخرين، ولما ظهر فضله جلس للتعليم ثم تولى القضاء فى سبتة وقرطبة، وله مؤلفات مهمة فى علم الحديث.

***

عياض بن عبيد الله الأزدى

واسم القاضى "عياض" يعيدنا مرة أخرى إلى مصر ، فإن أحد قضاتها فى

---

(١) انظر التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج ٥ د. أحمد شلبى.

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٤٤ .

أواخر القرن الأول الهجرى هو "عياض بن عبيد الله الأزدى" ويخلط بعض الناس بين الاثنين مع بعد الشقة فى الزمان والمكان، وقد تولى عياض بن عبيد الله الأزدى سنة ٩٣هـ من قبل قرة بن شريك والى مصر، وصرف عنها بعد عام ثم تولى مرة أخرى بكتاب سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨، فلما مات سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز أقره فى مكانه، ويذكر الكندى مراسلات كثيرة جرت بين الخليفة والقاضى حول بعض المشكلات التشريعية والقضائية[١].

***

والحديث عن مشاهير القضاة فى رحاب الإسلام له رونق وبريق خاص وهم كثر ومنهم من يزهو بهم التاريخ ويفخر بهم، ولو تتبعناهم جميعا سنكون فى حاجة لمجلدات، ولذا سنتوقف عند هؤلاء العلماء الأجلاء وسيكون للحديث بقية بإسهاب فى مؤلف آخر.

* * *

(١) قضاة مصر ج ٣٢ ص ٢٩.